ساعات جامع دمشق

وكتاب ابن الخراساني عنها

تذكر النصوص ، عند الكلام على أبواب جامع دمشق ، باباً اسمه « باب الساعات » . تجعله تارةً البابَ الجنوبيَّ المسمّى « بباب الزيادة » ، وتارة البابَ الشرقيَّ المسمّى « بباب جَيْرون » [1] .

وإذا رتّبنا هذه النصوص ترتيباً تاريخياً يظهر لنا أن باب الزيادة الجنوبي هو الذي سُمّي أولاً باب الساعات . فقد ذكره القاضي محمد بن زبر [1] المتوفى سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م — وكان أحد المؤرخين الدمشقيين [2] ، ونقل نصّه النعيمي في « تنبيه الطالب » فقال عند كلامه على المدرسة الأمينية [3] :

« قبليّ باب الزيادة من أبواب الجامع ، المسمى قديماً باب الساعات . لأنه كان هناك (بنكاب) الساعات يُعلم منها كل ساعة تمضي . »

فيتبين لنا أن باب الزيادة كان عليه ساعات منذ القرن الرابع الهجري . وما ندري إن كان وضعت عليه أيام الأمويين ، أم بعد ذلك ، « فقد كانت

---

(١) عن هذين البابين انظر كتابنا : « مسجد دمشق » ص ٢٥ ، ٢١ ، ٥ ؛ وكتابنا « خطط دمشق » ص ١٢٣ . والبابان هما من أبواب الجامع الأصلية

(٢) انظر كتابنا « المؤرخون الدمشقيون » ص ١٣ .

(٣) انظر الدارس ١ ـ ١٧٧ (نشرة المجمع العلمي بدمشق) ؛ وقد نقل العمري في مسالك الأبصار ١ ـ ١٩٨ وصف ابن زبر ؛ وكذلك بدران في منادمة الأطلال ص ٨٦ (نشرة المكتب الاسلامي بدمشق ، وهي نشرة سيئة مملوءة بالأغلاط) ، وقد أثبت ناشر المنادمة اسم ابن زبر (ابن زير) وهو خطأ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الساعات معروفة في دمشق زمن البزنطيين ثم أيام الأمويين »[١] .

ويصف ابن زبْر هذه الساعات فيقول :

« ... عليها عصافير من نحاس ، وحية من نحاس ، وغُراب من نحاس . فإذا تمّت الساعة خرجت الحية ، وصفرت العصافير ، وصاح الغراب . وسقطت حصاة في الطست . »[٢]

ومن المؤسف أن ابن زبْر لا يذكر صانع هذه الساعات .

فهذا كل ما نعرفه عن ساعات باب الزيادة . ومن المقطوع فيه أنها خربت عند حريق الجامع على أيدي الجنود المصريين سنة ٤٦١ هـ ، لأن النار جاءت إلى الجامع يومئذ من ناحية الخضراء التي رموها بالنار . والخضراء كانت تقابل باب الزيادة ودار الخيل جنوباً .

يؤيد هذا أن القلانسي الذي أرخ لدمشق في الحقبة الفاطمية والسلجوقية لا يذكر هذه الساعات . وكذلك السميساطي الذي أرّخ للحقبة نفسها ، ووجدنا ما كتبه عن دمشق ، عند ابن ايبك الدواداري[٣] ، لا يشير إلى هذه الساعات .

ونحن نعلم أن السلاجقة أصلحوا المسجد وأعادوه إلى سابق عهده . لكننا لا نجد في الكتابات السلجوقية التي عثر عليها في المسجد ذكراً لاصلاح الباب ، أو ذكراً للساعات[٤] .

---

(١) انظر : علم الساعات والعمل بها . ص ٨ (مخطوطة التيمورية ، صناعة ٢٤) .

(٢) الدارس ١ ـ ١٧٧ ومسالك الأبصار ١ ـ ١٩٨ ، واسقط بدران كلمة « في الطست » في نقله (منادمة ص ٨٦) .

(٣) انظر كتاب الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية » وهو السادس من كنز الدرر وجامع الغرر . (تحقيقنا) . صدر في مطبوعات المعهد الألماني للآثار في القاهرة .

(٤) انظر : كتابنا « ولاة دمشق في العهد السلجوقي ، المقدمة ص ١٤ ، والمصادر المذكورة فيه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعندما دخل نور الدين محمود بن زنكي دمشق سنة ٥٤٩ هـ/ وقضى على السلاجقة ، عُني بالجامع عناية كبرى ، فأصلحه ورممه . وأصبح الباب الشرقي للجامع — أي باب جيرون — هو باب الساعات فقد أمر نور الدين بصنع ساعات جديدة ، وضعت على هذا الباب . وكان الذي صنعها محمد بن علي بن رستم الساعاتي ، وهو عالم من خراسان انتقل إلى الشام وأقام بها إلى أن توفي ، وكان ملازماً هذه الساعات يتعهدها بالعناية والإدارة والإصلاح . وكان أوحد أهل زمانه في معرفة الساعات وعلم النجوم . وكان نور الدين يُغدق عليه الكثير [1] .

وقد حفظ لنا ابن جبير الأندلسي وصف هذه الساعات في رحلته ، عند كلامه على دمشق . قال :

« وعن يمين الخارج من باب جيرون ، في جدار البلاط الذي أمامه ، غرفة ، ولها هيئة طاق كبير مستدير ، فيه طيقان صُفْر قد فُتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ، ودُبّرت تدبيراً هندسياً ، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر ، من فمي بازيين مصوّرين من صُفر ، قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منها ، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثاني تحت آخرها ، والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البُندُقتين فيهما ، تعودان داخل الجدار إلى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدّان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاستين ، ويقذفانهما بسرعة ، بتدبير عجيب تتخيّله الأوهام سحراً ، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يُسمع لهما دويّ ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ؛ لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضي الساعات ، ثم تعود إلى حالها الأول . ولها

(١) انظر : ابن أبي أصيبعة ، أطباء الشام ٢ ـ ١٨٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالليل تدبير آخر ، وذلك أن في القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرّمة ، وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة ، مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فإذا انقضت عمّ الزجاجة ضوء المصباح ، وفاض على الدائرة أمامها شعاعُها ، فلاحت للأبصار دائرة محمّرة ، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل ، وتحمر الدوائر كلها . وقد وكّل بها في الغرفة متفقّد لحالها ، دَرِبٌ بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب ، وصَرْفَ الصنج إلى موضعها . وهي التي يسميها الناس المِنْجَانة (١) .

وواضح أن هذه الساعات التي وصفها ابن جبير غير الساعات التي وصفها ابن زبر .

وقد أوتيت هذه الساعات شهرة بين الناس ، كما أوتيت عناية من الحكام . وظلّ محمد بن علي الساعاتي يرعاها كما ذكرنا ، حتى توفي ، فانتقل أمر تدبيرها إلى غيره فأخربها .

وكان لمحمد الساعاتي ولدان . الأول : الشاعر المعروف بابن الساعاتي (علي بن محمد بن علي) صاحب الديوان . والثاني : كان طبيباً وأديباً ، وله معرفة بصناعة المنطق والعلوم الحكمية ، هو فخر الدين رضوان بن محمد ، وكان يكتب الخط المنسوب ، واشتغل بعلم الأدب على التاج الكندي ، وبلغ به الأمر إلى أن وزر للملك الفائز ابن العادل ، كما وزر للملك المعظم عيسى وكان ينادمه ويلعب بالعود (٢) .

---

(١) انظر : رحلة ابن جبير ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ (ط . صادر بيروت) ؛ وقد نقل هذا الوصف المقري في النفح عن ابن جبير .

(٢) ابن أبي أصيبعة ١٨٤/٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رأى فخر الدين ابن الساعاتي أن الساعات التي صنعها أبوه قد فسدت آلاتها ، وبطل أكثر حركاتها . فآلمه أن يرى ذلك ، فألّف كتاباً سماه « علم الساعات والعمل بها » تكلّم فيه كيف صنع أبوه الساعات ، وكيف دبّ فيها الفساد ، وكيف أخطأ في اصلاحها من قام بذلك بعد أبيه ، ثم ذكر كيف تدور ، وكيف تصلح إذا فسدت .

وهذا الكتاب من أعظم ما وقعت عليه عيننا من المخطوطات القديمة شأناً . لأنه كتاب يدلّ على مبلغ عرفان المسلمين في القرن السادس بشؤون الساعات وتركيبها وإدارتها ، وهو بهذا ، وثيقة تفيد في تأريخ العلوم عند المسلمين . وهو إلى ذلك يمدنا بألفاظ كثيرة تفيدنا اليوم عند وضعنا المصطلحات العلمية لأجزاء الساعات .

ونحن نقدّم هنا قسماً من المقدمة . تبين أغراض الكتاب .

فبعد أن يقول إن الساعات التي أنشأها والده :

« فسد بعد وفاته جميع آلاتها ، وبطل أكثر حركاتها ، وتغيرت حقائق أشكالها ، وعدم جلّ أعمالها ، حتى كادت أن تصير مجهولاً لا يُعرف ، ونكرةً لا تتعرّف ، هذا مع قرب العهد وقصر المدة » .

ينتقل إلى العلماء الذين حاولوا اصلاحها فينتقدهم :

« فظنّ كل واحدٍ ممن أدارها بعده أنه علاّمة الوجود ، ومحط رحال الوفود . أما الفيلسوف المعروف بالشيخ المهذّب ابن النقاش [1] ، رحمه الله ، مع ذكره بالجلالة في العلم ، والبراعة في الفهم ، وشياع صيته في الأقطار ، واشتهاره بالسيادة في جميع الأمصار ، فإنه أبطل منها ساعات الشمس التي هي أغمض جميع آلاتها ، تتحرّك مساوية لجرم الشمس التي في السماء ، فتطلع وقت

(١) انظر ترجمته في طبقات الأطباء ٢/١٦٢ ؛ وتوفي سنة ٥٧٤ هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

طلوعه ، وتغرب وقت غروبه ، وتتوسط دائرة البروج والأفق وقت انتصاف النهار سواء ....

وليس العجب من جهل ابن النقاش بعملها ، وضعف فكره فيها ، وعجزه عن إدارتها ، لأنّ والدي رحمه الله لم يُطلع أحداً على سرّها . وإنما العجبُ من كونه عجز عن إدارتها وآلاتها سليمة ، وحركاتها جميعها مستقيمة . ثم إنه لما عجز عن ادارتها لم يتركها على حالها ، بل أفسد جميع آلاتها ، وفكّ منها جرم الشمس ورمى به . وسمر باقي الذي عجز عن فكّه بمسامير لئلا تدور دائرة البروج ، بل توهم أنها مستمرة متداول عملها . مع كونه يعتقد في نفسه أنه علاّمة الوقت وفريد الدهر ، وأنّ اقليدس يقرأ عليه الهندسة ، وأرسطو يتعلم منه المنطق والعلوم الطبيعية ، وبطليموس يأخذ عنه العلوم الرياضية ، وأن ارشميدس دونه في علم الحيل والساعات . وما كان يقنع بهذا وحده ، بل بالزيادة عليه . وتعجبتُ أيضاً من قوله للناس لما طلبوا منه إدارتها أنها لا تدور أصلا . فلما قيل له كانت تدور ، والناس يُشاهدونها أنكر هذا ، وأقام على المكابرة والجهل . وقد كنتُ أسمع والدي رحمه الله ينقص هذا الرجل ويعيبه ، ويقول : إن جميع ما يسمع عنه من الاشتهار بالعلم لا حقيقة له . ولم يزل ذلك مني على ذكر ، حتى حققتُ ذلك بالذي شاهدتُ من أمره . وطالعت كتباً كثيرة بخطه في المنطق وغيره فوجدتُ فيها من السهو والغلط والتصحيف ما لا أحدّه ولا أحصيه . وأبطل أيضاً منها ساعاتِ الليل ، لأن النصف دائرة التي اخترعها والدي رحمه الله لتغطية الجامات لم يعرف المذكور كيفية وضع الحبال عليها ، بحيث تدور وقت ما تصل إلى الجامة السادسة ويصير ثقلها من أسفل دوراناً مناسباً ، وتنكشف شعرة شعرة ، حتى تنكشف عن الجامات الاثنتي عشرة ، بل صارت معه إذا وصل إلى هذا الموضوع المذكور وصار أكثر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثقلها من أسفل تهبط دفعة واحدة فتنكشف الجامات الست في لحظة واحدة . وسبب هذا أنه لا يعرف السر المانع لهبوطها . وبقي سنةً كاملةً يدأبُ في حيلة يمنع ذلك فلم تنهض قواه بذلك . فمات بغصته منها بعد أن عمل ترسة كلها مفسودة ، وانقضى الزمان والأيام على تجربة ما يعمل فلا يجيءُ موافقاً ، إلى أن قضى نحبه وما شفي كربه .

وكان تلميذه المعروف بابن الحاجب رحمه الله ممن أعجبته نفسه وعظم خيلاؤه وكبره وتاه بكبر لحيته ، واعتدال قامته ، وتصفيف صدغه وعمامته ، فاعتقد أنّ الأمور توافقه في كبره كما كانت في صغره وان إدارة الساعات مما يقع له بالاتفاق فلم يزل يفسد آلة بعد آلة وهو في شغل دائم وفكر ملازم إلى أن غلبه العجز والضجر على رأيه ، فاعتمد في أمرها على الحكيم أبي الفضل النجّار الذي لقب نفسه بالمهندس [1] . وهذا الرجل فقد كنت أحسنُ الظن به لأمور منها انه كان عنده سكون كثير فكنت أعتقد أنه لعلم وثبات ، ومعرفة اناة ، ومنها عدم المسارعة إلى الإجابة عما يُسأل عنه ، فكنت أظن ذلك تثبتاً منه ومعرفة ، إلى أن اطلعتُ على ما عنده وتفاوضنا في أمور تتعلق بالهيئة وغيرها ، فوجدتُه كالسراب . واطلعت له على مسائل أجاب عنها تدل على تخلف عظيم منها أنه سئل هل البروج من الكواكب الكرة الثابتة أم لا ؟ فقال : لا . وأشياء غير هذا كثيرة . وكانت أيضاً ساعات الليل معه بطالة وساعات النهار مختلة جداً .

---

(١) أبو الفضل محمد بن عبد الكريم المهندس الدمشقي . ترجم له ابن أبي أصيبعة ٢/١٩٠ وذكر أنه « هو الذي اصلح الساعات التي للجامع بدمشق . وكان له على مراعاتها وتفقدها جامكية مستمرة بأخذها . »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم تولاها بعده من لا يضيع الوقت في ذكره إذ ليس من هذه الرتبة ولا دونها فأفسدها بالكلية بحيث لم تبق فيها آلة واحدة صحيحة .

فألزمني مَنْ لا يسعني خلافه أنْ أتسلمها وأعيد حركاتها التي فسدت إلى الصلاح والتقويم ، وآلاتها التي بطلت إلى الكمال والتتميم ، وعلمت ما في ذلك من الأجر لما في معرفة أوقات الليل والنهار والصلوات ، في الغيوم والأمطار ، من الثواب الجزيل والأجر الجليل ، مع إحياء ذكر والدي رحمه الله وإعادة ما صار رميماً من صناعته ، وإظهاره بعد العدم إلى حالته . فامتثلتُ أمره وما غمطت سره . فلما تسلمتُها لم أجد فيها آلةً واحدة كما يجب . فأصلحتُ آلاتها وجددتها ، وعدلت حركاتها وقوّمتها ، وأعدتُها إلى ما كانت عليه من حسن الترتيب وهذّبتُها حسبما يستحقه قانونها من التهذيب . فكأنها مَنْ قد عاش بعد الموت ، أو عاد بعد الفوْت . وزدتُ فيها أشياء حسنة تعلم وقت الوقوف عليها . ثم رأيتُ أن أجمع ذلك كله في كتاب يُعتمد عليه ، ويعودُ الانسان في سائر حالاته إليه .

وجعلتُه خمسة فصول :

الفصل الأول : في استخراجها ، وذكر المستخرج الأوّل لها ، وذكر ما زيد فيها ، وتسمية آلاتها على طريق الاجمال .

الفصل الثاني : في أسماء آلاتها جميعها ، المقدم ذكرها ، على طريق الشرح والبيان والتلخيص لواحدة منها .

الفصل الثالث : في عمل آلاتها ، وذكر أشكالها وصورها ومقاديرها ، وكيفية عملها ، وذكر مقادير كل واحدة منها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفصل الرابع : في صورة العمل بها ، وكيفية دورانها ، وما في ذالك من الشروط ، وذكر وصايا وقت عمل الآلات ، ووصايا يحتاج إليها في كل يوم .

الفصل الخامس : في ذكر الآفات الداخلة عليها ، وكيف يحترز منها لتدور على أحسن الأوضاع وأصحها .

* * *

تلك أخبار ساعات أبواب الجامع بدمشق ، ولعل مجمعنا الدمشقي يعمل على نشر مخطوطة « علم الساعات والعمل بها » ، فإنه يجلو صفحة من تاريخ دمشق الحضاري ، ويمدنا بعدد كبير من الألفاظ الفنية التي يحتاج المعرّبون إليها .

(بيروت) صلاح الدين المنجد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net